زواج

جالت في خاطري فكرة الزواج. فقد تعبت من القيام بأعمال النساء داخل البيت بعد عودتي من العمل؛ أكنس الأرض، أعجن الطحين، وأخبز الخبز، وأطهو الطعام، وأصبن ملابسي وأنشرها في سطح البيت، ثم أقوم بكيها في المساء. كنت أقوم بكل هذه الأشغال المنزلية. وحين قررت الزواج، فكرت فيك وحدك.

أعلم أنك ما تزالين صغيرة، وأنك لم تخلقي لتكوني محاطة بجدران الغرف، لكني أومن أنك كبيرة وناضجة بما يكفي. فقد أدركت أن لك عقلا وأفكارا ليست للمتزوجات ولا للأمهات. أدركت، وبسرعة، أنك قادرة على تحمل مسؤولية البيت.

وحينما أفقت من حلمي هذا بصدمة صعوبة عيشك معي في الدوار أدركت أنك امرأة لن تتحمل قسوة الحياة البدوية. فطباع الناس، هنا، صعبة. حتى الرجال المسنون، وذوو اللحى، والمتدينون يسبون الحيوانات البريئة ويقذفونهما بأشد السباب والشتائم! "أسي عزيز" كان واحدا منهم؛ حفظ القرآن صغيرا، وكان يسافر إلى المدن الكبرى ليشتغل بها. ولما تزوج بقي في الدوار يحرث الحقل ويزرعه، ويحصده، ثم يدرسه. يتبع المواسم الفلاحية في دورتها، والفصول في تقلبها، وزوجته في دورتها الشهرية. حفظ حالتها من خلال تتبعه لحالة الدورة الزراعية.

التقيت به ذات موسم حصاد في الحقول، كان قد حمَّلَ الحمارَ ما لا يطيقُ من الزرع، ونزَل على مؤخرته بالسوط. لم يكتفي بالسوط، وإنما تعالت صرخاته ووعيده: "سيرألحماربن لحمار، أشاا، زيد، أراا..."!

كان رجلا قصير القامة، مكور الوجه، أسمر اللون، طويل اللحية، خشن الصوت، أفطس الأنف.. منظره يشبه رجال الدين الكاثوليك: طاقية فوق رأسه، وجلباب فضفاض تحركه الريح.

كتبت رسالتي لفاطمة:

عزيزتي فاطمة:

"تدركين جيدا أنني متعلق بك تعلق الغواص بالدّرّ، ولكنك لن تستطيعي العيش معي في دوارنا هذا".

لما أحل شهر رمضان، تاب الدوار. الكل يصلي صلاة التراويح؛ صغارا وكبارا، نساء ورجالا.. حتى الأعيان ورئيس الجماعة ومقدم الدواروكل الذين لم يصلوا يوما، ويحتقرون أهل الدوار، ويستولون على خيراته، يتوبون. أراقبهم من الصف الأخير. في الحقيقة، لا تهمني الصلاة بقدرما يهمني أن ألمح الكذب والباطل والبهتان والنفاق. الذين يسبون إخوانهم في الصباح، يبكون في الليل خلف الإمام. والإمام لا حول له ولا قوة. لا يستطيع أن يقول لهم شيئا. فإن فكرفي نصحهم وطردهم من بيت الله، سيجد نفسه خارج المسجد، ويعود إلى حال سبيله. سيبدلونه كما يبدل أسي عزيز حميره، وسيكون أضحوكة الجميع، وحديث مجالس النميمة. عزيزتي فاطمة. أحببت أن أخبرك بكل شيء حتى لا تصدمي بواقع الدوار، وحتى لا تسبي الحمير.